أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

[إبراهيم: ١٠]

سماحة الشيخ العلّامة

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عُمان





مسقط - سلطنة عُمان

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

تتشرف الكلمة الطيبة المتخصصة في النتاج العلمي لسماحة العلامة الجليل الوالد الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان

AhmedHAlKhalili@

بتقديم هذه الطبعة التفاعلية الخاصة بأجهزة الحاسوب والأجهزة الذكية من هذا المقال القيّم، فما على القارئ سوى الضغط على العنوان في **الفهرس** ليصل تلقائيًا إلى الموضوع، والعودة **للفهرس** مجددًا بالضغط على كلمة: **المحتويات** الموجودة أسفل كل صفحة.

تنبيه:

يجب تحميل تطبيق Adobe Acrobat Reader

للاستفادة من الميزة التفاعلية

المحتويـات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تجلى وجوده في كل ذرة من الوجود، وشـــهدت بوحدانيته كل جزيئة من أي موجود، فالكون كله آياته وشهوده، تعرب ألسنة حاله وشواهد أحواله بتكذيب جاحده، وأنه قد خســـئ جحوده، والصلاة والسلام على من دعا إلى الله تعالـــى بأعظم البينات وأبلـــغ البراهين الساطعات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وكل من سار على دربه.

أما بعد:

• مقدمة:

فإن أجلى حقيقة في الوجود شهود الحق سبحانه وتعالى الذي يتجلى شهوده في مفردات الكائنات؛ وإن بلغت في الدقة منتهاها، فما من شيء في تضاعيف الكون وطوايا الوجود إلا وهو يضج بأنه لم يكن ليوجد لولا وجود من هو واجب الوجود لذاته، الذي افتقر إليه كل موجود، وأعلن بلسان حاله ببوار وضلال من كل من عمي عن هذه الحقيقة وجادل فيها، لأنه تعام عن مشاهد الوجود وتصامم عن أصواته الصادعة بحجة الحق المسبحة بحمد من أخرج كل كائن من العدم إلى الوجود، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ الإسراء: ٤٤، فكيف يخفى على لبيب هذا التسبيح؛

الذي تتعالى في أطباق الوجود صيحاته المتوالية في جزيئات لحظاته، منذ نشــر الله الوجود إلى أن يطويه؟!.

• أبرز القضايا اليقينية عند ذوي الألباب:

وإذا كان في العصور الغابرة التي كانت فيها معظم الحقائق العلمية فــي طوايا الخفاء، وكان أكثر الناس يعيشون عيشــة بدائية في تصوراتهم وتصرفاتهم كانت قضية وجود الله تعالى مسلمة عند جميع العقلاء بالفطرة، حتى أن أعرابيا سئل بماذا عرفت ربك؟ فأجاب بفطرته: «البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، ألا يدل هذا الكون علــى اللطيــف الخبيــر؟»؛ فكيف بهذا العصر الــذي خرجت فيــه طوايــا الحقائق من خفائها وتجلت للناظرين، وســبر العلم غوامض الكون فجلاها حتى شُوهدت رأي العين، وبحث

عن الممكن والمستحيل فميز بينهما بما لا يدع مجالا للارتياب، وغـــدا تقدم العلم والبحث في أي مجـــال داعيا إلى عمق الإيمـــان بالله، وقطع دابر الشـــكوك عن هذه القضيـــة، التي هي أبرز القضايـــا اليقينية عنـــد ذوي الألبـــاب، وتعمق العلماء في دراســـة برمجيات دقائـــق الكائنات فأحصـــوا حروفهـــا بلغاتهـــا الكاشـــفة لأعماق الحقيقة، فأسفر وجهها عن الحق اليقين، وتعزز بذلك الإيمان وخار به الإلحاد، ولم يعد بيده ما يتمسك به ولو كان أوهى الخيوط.

فقد اكتســـح تيار الإيمان الجـــارف بطوفان براهينـــه جميـــع شـــبهات الإلحـــاد، وإنما هي المكابرة التي تجعـــل من أصيب بدائها العضال يجحد بزوغ الشـــمس وقت الظهيرة من غير أن يحجبها قتر ولا سحاب.

• الملاحدة بين المكابرة والحيرة:

وقد بلغ بهم إنكار بدهيـــات العقول وجلايا الحقائق إلى إنكار وجود العالم نفســه، والزعم بأنه لا يعدو أن يكون وهما، كما زعم ذلك السير جميس جنــز الذي بلغ بــه الخبــل والعناد في المكابرة والحيــرة في الواقع إلــى أن يزعم أن الكــون ليس له وجــود وإنما هو وهــم، وليت شعري؛ إن كان وهما كما يزعم فمن هو الواهم؟! فإنه يترتب علــى قوله أن لا يكــون للوهم ولا للواهم وجود، وأن يكون هو بنفسه غير موجود وأن تكون جميع تصوراته لا وجود لها.

وما أعظم هــذه المكابرة في إنــكار الواقع وطمس الحقيقة فإنــه يترتب على قوله هذا أن لا يكــون وجود للأجــرام الفلكية ولا لســنة الجاذبية ولا للحياة ولا للموت ولا للإنســان

ولا لغيره، وهل هناك مكابرة أعظم من هذه أو خبل أبلغ منه؟! ولا أريد الاسترسال في إبطال هذه الترهات، فإن بطلانها أظهر من أن يحتاج إلى دليل، وإنما أؤكـــد أن هذا الخبل ليس هو ناشئا إلا عن مكابرة الإيمان، فما من فرق بين هذه المكابرة ومكابرة مـــن يجحد وجود الله، مـــع أن حقائق الوجود بأســـرها شـــاهدة على وجوده، فما من شاهد ولا مشهود إلا وهو دال على شهوده!.

• العلـم والإيمـان:

وإذا كان هذا الحائر بدهشـــته مـــن براهين وجود الله تعالـــى مما انطوت عليـــه تضاعيف الوجود حرص في الاسترســـال على المكابرة حتى أنكر كل شـــيء وعزاه إلى الوهم، فأبطل بذلك مـــا تـــدل عليـــه العلـــوم الطبيعية على

اختلاف أنواعها ما تشـــهد به مشاهد الكائنات في جميـــع أطوارها؛ فإن العجـــب كل العجب ممن يعتـــرف بمعطيات العلـــوم ويقر بما تدل عليه من الحقائق المادية، ولكنه يظل غارقا في وهمه، سادرا في عماه وضلاله، منكرا ما تدل عليه مـــن افتقارها إلى مَنْ أخرجهـــا مِنَ العدم ومَنّ عليها بالوجود، مع عدم إمكان الانفكاك بين دلالـــة العلوم علـــى حقائـــق المعلومات ودلالاتها على من أوجدها وأتقن صنعها وأبدع تركيبها وأحكم نظامها.

وقد ظل الملاحدة حقبـــة من الزمن منكرين لحدوث الكون مصرين على أزليته، حتى برزت الحقيقـــة التي أخرســـتهم، وهي ثبـــوت اطراد تناقص الحرارة الديناميكية المؤدي إلى انحلال الكون وزواله، فثبت بذلـــك بما لا يدع مجالا

للشك أن وجوده بدأ منذ عهد في تأريخ الوجود، ولو كان أسبق من ذلك لكان وصل إلى نهايته منذ زمن سحيق، فهو بدأ ببداية وسينتهي إلى نهاية، وكان ثبوت هذه الحقيقة ضربة قاصمة للإلحاد، ولكن الملاحدة ظلوا في مكابرتهم وعنادهم زاعمين أنه لا يوجد دليل علمي على أن وجوده يتوقف على موجد، وباستنطاق العلم والرجوع إلى ما سطره من الحقائق على صفحات كل ذرة من ذرات الوجود يتبين بأن دعوى وجود الكون من تلقاء نفسه من غير إرادة وتنفيذ ممن لم يسبق وجوده عدم هي دعوى منهارة من أساسها، ليس لها نصيب من الصحة ولو بنسبة ذرة في هذا الكون، ولنسمع في ذلك ما يجيبنا به صوت العلم الهادر.

• الله يتجلى في عصر العلم:

كل العلماء الذين أسلسوا قياد عقولهم للبحث العلمي ولم يكابروا حقائق العلم وبراهين العقل شهدوا بأن العلم شاهد عدل على وجود الله الذي خلق هذا الوجود، فقبل أكثر من ثلثي قرن من الزمن طُرِحَ سؤال في بعض الصحف الأمريكية عن إمكان وجود الكون بدون مكون؟ فأجاب باستحالة ذلك ثلاثون عالما من الولاية المتحدة الأمريكية، لكل منهم تخصصه العلمي وميدانه في البحث، وقد جمعت إجاباتهم مرتبة في كتاب بعنوان: «**الله يتجلى في عصر العلم**» ودونك أسماءهم وعناوين إجاباتهم وتخصصاتهم العلمية.

١. **فرانك أللن عالــم الطبيعة البيولوجية**، وعنوان جوابه: (**نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟**).

٢. **روبرت موريس بيدج**، وعنــوان جوابه: (**اختبار شامل**).

٣. **ماريت ستانلي كونجدن**، وعنوان جوابه: (**درس من شجيرة الورد**).

٤. **جون كليفلاند كوثــران**، وعنوان جوابه: (**النتيجة الحتمية**).

٥. **إدوارد لوثر كيل**، وعنــوان جوابه: (**فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز**).

٦. **وولتر أوســكار لندبرج**، وعنــوان جوابه: (**استخدام الأسلوب العلمي**).

٧. **بول كليرانس ابرســولد**، وعنوان جوابه: (**الأدلة الطبيعية على وجود الله**).

٨. **جورج ايرل دافيز**، وعنوان جوابه: **(الكشوف العلمية تثبت وجود الله)**.

٩. **توماس دافيز باركس**، وعنوان جوابه: **(الماء يروي لك القصة)**.

١٠. **جون وليم كلوتوس**، وعنـــوان جوابه: **(الله والكون المعقد)**.

١١. **ايرفنج وليـــام**، وعنوان جوابــــه: **(المادية وحدها لا تكفي)**.

١٢. **رسل لويل مكستر**، وعنوان جوابه: **(الحائر الصغير يفكر)**.

١٣. **لورنـــس كولتون ووكر**، وعنـــوان جوابه: **(حقائق من سجل الغابات)**.

١٤. **وولتر إدوارد لاميرتـــس**، وعنوان جوابه: **(ما وعاه ابن صاحب البستان)**.

١٥. **رسل تشـــارلز آرتســـت**، وعنوان جوابه: **(الخلايا الحية تؤدي رسالتها)**.

١٦. **جورج هربرت بلونـــت**، وعنوان جوابه: **(منطق الإيمان)**.

١٧. **دونالـــد روبـــرت كار**، وعنـــوان جوابه: **(موجهات جيولوجية)**.

١٨. **كلودم هاتا واي**، وعنوان جوابه: **(المبدع الأعظم)**.

١٩. **أدوين فاست**، وعنوان جوابه: **(نظرة إلى ما وراء القوانين الطبيعية)**.

٢٠. **جون أزولف بوهلر**، وعنوان جوابه: **(الله والقوانين الكيماوية)**.

٢١. **ألبرت ما كومب ونشستر**، وعنوان جوابه: **(العلوم تدعم إيماني بالله)**.

٢٢. **ايرل تشتر ريكس،** وعنوان جوابه: (**الكون تحت سيطرة مركزية**).

٢٣. **مالكولم وينسر الابن،** وعنوان جوابه: (**صحة الدين**).

٢٤. **ديل سوارتزن دروبر،** وعنوان جوابه: (**عجائب التربة**).

٢٥. **لسترجون زمرمان** ـ إخصائي التربة وفسيولوجيا النبات ـ، وعنوان جوابه: (**التربة والنباتات**).

٢٦. **روبرت هورتون كاميرون ـ أخصائي في الرياضيات ـ،** وعنوان جوابه: (**الإنسان ذاته هو الدليل**).

٢٧. **واين أولت** ـ مختص في الكيمياء الجيولوجية ـ، وعنوان جوابه: (**التوافق بين العلوم**).

٢٨. بول إرنست أدولف ـ طبيب وجراح ـ، وعنوان جوابه: **(الله والعلاج الطبي)**.

٢٩. سيسل هامان ـ عالم بيولوجي ـ، وعنوان جوابه: **(الزهر وطيور بالتيمور)**.

٣٠. أندرو كونواي إيغي ـ عالم فسيولوجي ـ وعنوان جوابه: **(وجود الله حقيقة مطلقة)**.

ولم يكن هؤلاء أول من راد البحث في هذا، فقد سبقهم باحثون رادوا الحقائق العلمية وفتحوا خزائن المعارف الطبيعية، فوجدوها شاهدة على وجود الله سبحانه، وكانت لهم تجارب محت تصور كل احتمال لأن يكون الخلق حصل بغير خالق، ولو في أدق الأشياء وأبسطها، وقد أدركوا استحالة أن تكون ذرة واحدة تكونت بنفسها من غير إرادة قادر حكيم يقول للشيء (كن) فيكون.

- **أنموذج تجارب العلماء في بطلان المصادفة:**

وقد قام العالم الفيزيائي السويسري **تشارلز أوجين غاي** بتجربة في إمكان تكوين جزيء بروتيني واحد بما يعبرون عنه بالمصادفة، فوجد ذلك يستحيل بجميع المقاييس العلمية، ولا احتمال له إلا بنسبة ١ إلى رقم ١٠ مضروبا بنفسه ١٦٠ مرة، ومع ذلك فإنه يتوقف احتمال ذلك على كون كمية المادة ـ التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بطريقة المصادفة لينتج عنه جزيء واحد ـ أكثر مما يتسع له هذا الكون جميعا بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عما يسمى بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها ١٠ مضروبة في نفسها ٢٤٣

مرة من السنين، وهذا كله في تكون جزيء بروتيني واحد، فما بالك بما تشتمل عليه الخلية من مكونات، وما يسري فيها من سر الحياة، الذي وقفت دون الحوم حول حماه جميع مدارك البشر، ناهيك بهذه الخلايا التي تتجاوز ملايين الملايين في الجسم الواحد، وهي تتجدد في جسم الإنسان مثلا في كل ثانية، بحيث تذهب فيها ١٢٥ مليون خلية وتحل محلها غيرها بهذا القدر.

والتجربة التي قام بها الرياضي السويسري المذكور اختار فيها لدراسته أبسط الذرات من العضويات التي يمكن أن تشترك في تركيب خلية واحدة من خلايا الكائنات العامرة للوجود، وقد اجتهد في تبسيطها، فمع أنّ الوزن الذري لأبسط الآحيات هو (٣٤٥٠٠)

اعتبر الذرات ٢٠٠٠ (ألفي ذرة)، وقام بتبسيط آخر لها فاعتبر أنّ الذرات هي نوعان فقط، بينما هي في الحالة العادية أربعة جواهر على الأقل وهي الفحم والهيدروجين والأكسجين والآزوت، بالإضافة إلى الكبريت والنحاس والفوسفور وغيرها من العناصر، وقام بتبسيط ثالث هو اعتبار الوزن الذري ١٠ وسطية، مع أن الفحم ١٢، والأكسجين ١٦.

ولم تكن دراسته في خلق الذرة ـ أي إخراجها من العدم إلى الوجود ـ وإنما هي في تركب أجزائها؛ هل يمكن أن يكون ذلك بدون تصميم؟! وكان مما تضمنته دراسته أنه على تقدير إمكان ذلك، فهو يتوقف على ثلاثة عناصر:

أولها: المادة التي يتوقف عليها نجاح ذلك:

وهي يجب أن تكون كتلة حجم كرتها لا يمكن أن يقطعه الضوء إلا في عدد من السنين رقمه (١×١٠^{١٦٤}) وهو رقم لا تتوصل إليه العقول ولا تحصيه الرياضيات إلا بمجرد التخيل، لأنه يفوق جميع تصورات البشر، وحساباتهم الخيالية.

ثانيها: الزمن:

فإن ذلك لو قدر لاستغرق من الزمن بلايين السنين (١×١٠^{٢٤٣}) وهو فوق ما يتصور من عمر الكون بأضعاف تتجاوز جميع الحسابات.

ثالثها: الطاقة:

بحيث يصل الضخ الحروري في الثانية الواحدة ٥٠٠ مليون تريليون هزة، ومع كل ذلك فإن احتمال هذا الإمكان في تركب هذه الذرة لا يتجاوز ($١/٢ \times ١٠^{٣٢١}$).

• كل ذرة في الكون مكتبةٌ علمية واسعة:

وإذا كان هذا بالنظــر إلى ذرة واحدة هي من أبســط الذرات وأدقها فكيف يتصور وجود أي نوع من أنواع المخلوقــات تلقائيا من غير تقدير ممن أحــاط بكل هــذه الدقائق علما ووســعها خبرة، فتجلــت له الخفايا منهــا كالجلايا، وهو محيــط بــكل شــيء قــدرة؟! وكيــف بهــذه المخلوقــات كلها التــي علمنا عنهــا والتي لم نعلم؟! بل كيف بهذا الكون الذي حار الإنسان فيــه، ولا تــكاد تمضي فتــرة مــن الزمن حتى يكتشــف الإنســان من أبعــاده ما يزيــده يقينا بجهلــه؟! إذ في كل مــرة يتم فيها الاكتشــاف يتضح أن ما اكتشف سابقا لا يعد إلا شيئا ضئيلا بجانب ما تم اكتشــافه لاحقا، وحسب اطلاعي منذ بضع سنوات كان تقدير ما اكتشف منه تصل

أبعاده إلى ١٨٠ مليار سنة ضوئية، والسنة الضوئية تقـــدر بـ (٩,٤٦١) تريليون كيلومتـــر أو (٥,٨٧٨) تريليون ميل، ومـــا يدرينا ما هـــي الأبعاد التي ستكتشـــف لاحقا، فإن هذا كله يثبـــت أن علم الإنسان ومداركه محدودة بمحدودية مخلوقيته، وصدق الله تعالـــى القائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء: ٨٥.

وإذا كانت دراسة العالم الفيزيائي السويسري في أدق الذرات وأبســـطها، وليست في إمكان خروجها من العدم وإنمـــا هي في إمكان تركب وحداتها وترتبها، فكيـــف بهذا الكون المحكم، الذي أتقن الله تعالى صنعه ووحد نظامه، وأبدع مظهره ومخبره؟! كيف يصدق ذو عقل دعاوى الملاحدة الفارغة أنه خرج بنفسه من العدم إلى الوجود، وانتظم بهذا الترتيب حتى كان بأبعاده

المترامية وحـــدة متكاملة كالجســـد الواحد في ترتب أعضائه وتكاملها؟!

وهو مع ذلـــك مبرمج بكيفيـــة تحار منها العقول، فـــكل ذرة منه مكتبة علمية واســـعة تحار منها ألباب البشـــر، فهل يمكن أن تكون الطبيعـــة العميـــاء الصماء الجهـــول هي التي فعلت ذلك كله؟

- **اعترافات الملاحدة:**

وقد وجدنا من هو من أشد الملاحدة عنادا، وأسوئهم وقاحة، وأجرئهم على مغالطة الحقائق ومكابـــرة العقول، يعترف بحيرتـــه عندما واجه هـــذه الحقائـــق، فنجد أحـــد فرســـان الإلحاد المعانديـــن في عصرنا هـــذا **ريتشـــارد دوكينز** يعترف في كتابه **صانع الساعات الأعمى** بحيرته

من نظام الخلايا العصبية التي تقدر بالبلايين ونظامها الرتيب، فيقول في ذلك:

«والمشكلة هي مشكلة التصميم المركب، إنّ الكمبيوتر الذي أكتب عليه هذه الكلمات له قدرة على اختزال المعلومات ولما يقرب من ٦٤ كيلوبايت، (البايت الواحد يستخدم لاختزان كل حرف واحد من النص)، وقد صمم هذا الكمبيوتر بوعي وأنتج إنتاجًا متعمدًا، أما المخ الذي تفهم به كلماتي فهو نظام من بضع عشرات الملايين من الكيلوعصبات (kilo neurones)، وفي كثير من هذه البلايين من الخلايا العصبية يوجد لكل خلية ما يزيد عن ألف سلك كهربي، يصلها بعصبات أخرى، وفوق ذلك فإنّه على مستوى الوراثيات الجزيئية تحوي كل خلية واحدة

فيما يزيد عن تريليون خلية في الجسم قدرًا من المعلومات المرقومة في شفرة دقيقة يساوي ما يحتويه كل الكمبيوتر الذي لدي، وتركب الكائنات الحية يضارعه الكفاءة الرائعة لتصميمها الظاهر، وإذا كان هناك أي شخص لا يوافق أنّ هذا الكم من التصميم المركب يصبح مطالبًا بتفسير، فإني أقر باليأس منه».

وإذا كان ذلك بالنظر إلى دماغ إنسان واحد فكيف بأدمغة البشر جميعا في كل عصر من العصور؟، وكيف بما تحتويه أجسامهم من الخلايا التي تقدر بعشرات أو مئات المليارات، وكل خلية منها يوجد فيها ما يزيد على ٣ مليارات حرف من المعلومات والبرمجيات، بحيث لو طبعت في نسخة ورقية لملأت عشرة آلاف مجلد، كل مجلد منها ألف صفحة، ذلك

ما احتوته خلية واحدة من الإنسان، فكيف بهذه الكائنات الحية بأسرها؟ وكيف بهذا الكون الواسع وما احتواه في تضاعيفه من أسرار الخلق وغوامض الطبيعة، التي يكتشف العلم في كل حين زاوية منها تزعزع ثقة العلماء بما اكتشفوه سابقا من أرقام أصبحت لا تساوي شيئا مما اكتشفوه لاحقا؟!

وهذا يجعلهم ينكسون رؤسهم أمام هذه المعجزة الباهرة، وفي كل ذلك تصديق لوعد الله أن يريهم من آياته ما يدهش عقولهم ويعرفهم بأقدارهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء: ٣٧، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ النمل: ٩٣، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣.

• التفكير الفطري عند الأطفال:

ومع هذا كله كم نسمع من أصوات يرددها أقزام الملاحدة الأدعياء الذين بلغ بهم الغرور أن يتصور كل منهم أنه أعظم من رضوى وأكبر من طور سيناء، وهو لا يساوي ذرة من غبار الأرض، زاعمين أنه لا صلة للإيمان بالعلم، ولا رابطة بين الوحي والاكتشافات العلمية، وذلك راجع إلى جهلهم وغرورهم، وكونهم لم يحوموا حول حمى العلم.

فتلك أصوات رادة العلم الذين أفنوا فيه أعمارهم، واستنفدوا في اكتشافه طاقاتهم، فعرفوا قوة صلته بالإيمان، ودلالته على ضرورة الدين، وأن الإيمان بالله تعالى فطرة يولد عليها كل إنسان مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ

لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٠، ولقوله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

ومع إقصاء الدين والإيمان عن حياة الإنسان في المجتمع الغربي المادي الغارق في الإلحاد والإباحية، فقد ثبت أن الأطفال هنالك ينشأون على فطرة الإيمان حتى ينحرف بهم التعليم الذي يتلقونه عن نهجه، وقد أكد ذلك كثير من الباحثين في الغرب وخصص لذلك الدكتور **جستون باريت** مؤلفا خاصا سماه **فطرية الإيمان** وذلك من واقع تخصصه في علم الإدراك الديني حيث قام بتجميع أشهر الأبحاث العلمية التجريبية التي تم إجراؤها منذ قرابة عشرين سنة إلى اليوم على أطفال من عمر ٩ شهور إلى

بضع سنوات، يستعرض نتائجها المذهلة التي تؤكد على ولادة كل الأطفال بالأدوات العقلية التي تمكنهم من الإيمان بخالق متميز عن البشر ذي قدرة عظيمة، وكيفية تحليل طريقة الأطفال في التفكير وإيضاح طريقة استنباطهم لوجود الخالق من أبسط البدهيات العقلية مثل علاقة (السببية) في الأشياء.

ومما قاله في كتابه هذا: «إنّ الأفكار الدينية مختلفة جدًا عن الأفكار المدعاة أو الخيال، فمنذ بدأت بإلقاء محاضرات عامة عن المعارف التي بني هذا الكتاب عليها، وأنا أتلقى الكثير من التقارير من أناس يخبرونني فيها عن مدى سهولة اعتناق أطفالهم للدين، وعن مدى صعوبة صدّهم عن الإيمان بالله، فقد أخبرتني زميلة عمل سابقة عن بناتها الثلاث، وتبلغ

أكبرهن الثامنة من عمرها، تقول: (أنا مسيحية ولكن زوجي ملحد، وقد قررنا أن لا ندفع أولادنا في أي اتجاه، لكن هذا لا يبدو أنه مهم، فالبنات الثلاث جميعهن يؤمن بالله، وبدرجة عميقة، بل إنّ أكبرهن تشاجرت مع أبيها وأخبرته أنه مخطيء باعتقاده أنّ الله غير موجود).

كما أبدت أمٌّ ملحدة من أوكسفورد في انجلترا ذهولها عندما اكتشفت أنّ طفلها ذا السنوات الخمس لديه إيمان راسخ بالله، رغم كل جهودها للعكس.

ووافق والدان غير مؤمنين من انديانا بعد تردد على إرسال طفلتهما، وهي في سن الروضة إلى رحلة تنظمها مدرسة الكتاب المقدس، وقد عادت الطفلة إلى المنزل من هذه الرحلة مبدية

رغبة عارمة للاستمرار في التعرف على الله، كما اكتشف زميل دنماركي أنّ طفلته الصغيرة قد تلقت صدفة حالة من الإيمان بالله، وذلك في أحد أشد المجتمعات العلمانية على سطح الأرض، إنَّ هذه القصص والكثير غيرها ليست هي الأسباب التي تدعوني إلى القول بأنّ الأطفال يولدون مؤمنين، لكنها تقول إنَّ ما يجري هنا هو شيء مختلف عن المصادفة أو التلقين، فلماذا يكون من السهل أن ندفع الأطفال ليؤمنوا ويقتنعوا بنوع من الآلهة أكثر من المعتقدات الأخرى، كالاعتقاد بفوائد نبات البروكلي مثلًا، أو أنّ عمتهم الكبرى ليست مرعبة حقًّا، أو الاعتقاد بعدم وجود إله».

وذكر بعد ذلك أنّ آباء الأطفال الصغار والمراهقين منهم على وجه الخصوص يعلمون

أنهم لا يستطيعون ببساطة برمجة معتقد أطفالهم، فهم يستطيعون تلقينهم، لكنهم غالبًا يفشلون، وذكر عن الممثلة الكوميدية جوليا سويني (Julia Sweeney) أنها حاولت تربية ابنتها لتكون ملحدة لكن الأمر بدا صعبًا، وقال بعد ذلك: «إنّ المحاولات المستمرة لتلقين ابنتها الإلحاد بالله واجهت صعوبات حقيقية بسبب الميل الفطري للأطفال نحو الإيمان الديني، فالأطفال لا يتقبلون كل الأفكار على حد سواء».

وقال في موضع آخر: «يتقبل الأطفال بسهولة أنّ الله خالق العالم الطبيعي من الجبال والبحيرات إلى الأشجار والفيلة، وتشهد هذه الحقيقة بالتأكيد على قابلية الأطفال لقبول كائنات ذات قوة وقدرة تفوق البشر، يؤثر تفاعل الأطفال المبكر مع الأشياء الفيزيائية عليهم، من

خلال التجربة المباشـــرة فيدركـــون أنّ قدرتهم الخاصة على تحريك الأشياء، وتغيير البيئة لها محـــددات، فالأبـــواب التي يريـــدون فتحها لا تتزحزح وأختهم الصغيرة ثقيلة بعض الشـــيء، فلا يمكنهـــم رفعها وحملها، ويســـتدل الأطفال بالتأكيـــد أنّ الذي خلق الجبال لـــه قدرة خارقة عمومًا، أليس ذلك صحيحًا، ربما ولكننا لســـنا مضطرين، لحســـن الحظ أن نسلم بهذا الموقف دون دليل مستقل».

وقال أيضًا: «كنت أعرف طفلة أذهلت أهلها مرة وهي بعمـــر الثانية عندما قالـــت إنها رأت ملائكة في غرفتها، وفي الزاوية العليا على وجه الدقة، وفي عمر الثالثة وفي حالة غضب شديد مـــن أهلها دخلـــت الطفلـــة ذاتها إلـــى غرفتها وأغلقت الباب بعنف وبدأت تتمتم بعنف، كنت

هناك وشهدت هذا الموقف، وعندما فتح أهلها الباب وطلبوا منها أن تفسر هذا التصرف الغريب الذي قامت به، جاوبت على الفور: (لم أكن أتكلم معكم، كنت أتكلم مع الله).

كما نشرت أم الطفل بِن الذي عمره ثلاث سنوات على الفيسبوك ما يلي: (أقتبس من قول بن البارحة: تتكلم حيوانات الماء مع الله، وتتكلم الديناصورات السابحة مع الله، وكذلك يجب أنّ نكون كلنا على تواصل) تلا ذلك بالطبع بعد عدة دقائق كلام تقليدي لطفل في عمر الثالثة، إذ قال أريد أن أذهب للمتجر وأشتري ألعابًا».

وبعد أن قطع شوطًا في الاستشهاد بكثير من الشواهد، من تجاربه الخاصة في تعامله مع الأطفال وأهليهم، قال: «عرضت في خريف عام

٢٠٠٦ أمام ملأ من الحضور في كلية فرانكلين ومارشال في لانكستر (بنسيلفانيا) بعضًا من أفكار هذا الكتاب، وأثناء جلسة المناقشة الحيوية بعد المحاضرة الرسمية، بدا الجمهور مهتمًا على الأخص بمفهوم أنّ أسس الإيمان أو حتى الإيمان نفسه ينشأ فطريًا أثناء سنوات ما قبل المدرسة، ولما أكدت على هذا التفسير للدليل الحالي بادر رجل كان قريبًا من صفوف المقدمة بالسؤال المباشر: (ألا يعني أن الإيمان بالإله أمر صبياني؟) فأصابت الجمهور المهذب دهشة مما اعتبروه سؤالًا وقحًا، بل وتهجميًا، ولكنه كان سؤالًا وجيهًا».

وما كان طرح هذا السؤال ممن طرحه إلا للعقدة النفسية التي رانت على قلوب الذين كفروا بالله، فضاقت صدورهم من الإيمان به

تعالى، حتى عدوا منطق الفطرة وصوت العقل الدالين على أنّ الإيمان به من ضرورات الحياة هذيًانا لا يصدر إلا من أطفال قصر، أو من كان مثلهم في ضيق أفق التفكير، وما هو إلا كما أخبر الله تعالى عن نفوس هؤلاء المريضة الخائبة في قوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥.

• **عبث الملاحدة وتفسيراتهم المادية:**

وقد أذهل هذا الواقع غلاة الملاحدة في المجتمع الغربي ولم يجدوا إلا أن يصفوا هذا التفكير الفطري بأنه يعود إلى سذاجة الطفولة، وما ذلك إلا بسبب إظلام عقولهم وانطماس بصائرهم بما تراكم عليها من حجب الإلحاد والكفر.

وقـد أثبتت دراسـات أكاديميـة ـ في بعض الجامعات الغربية تضافرت عليها جهود باحثين متعمقين من جهات شـتى ـ أنّ الإيمان بوجود الله تعالـى وأنـه رب الوجود وخالقـه، ومبدئه ومعيده، وأنه غاية كل سـاع وأمل كل ملهوف؛ فطرةٌ مركوزة في طباع الخلـق، يولد عليها كل مولود، وينشأ عليها كل ناشئ، حتى تنحرف به التربية عن هذا النهج الفطري المستقيم.

وهذا ما عجز عن إنكاره الملاحدة أنفسهم، لأن تلـك حقيقة أثبتتهـا دراسـاتهم، فقد ذكر د. هشـام عزمي أنـه: «لا ينكر معظـم علماء الملاحـدة ـ إن لم يكـن كلهم ـ وجـود فطرة الإيمان بالله داخل الإنسـان، نظرًا لتضافر الأدلة قديمًا وحديثًا على هذه الحقيقة، ففي بحث كبير تحـت إشـراف جامعة أوكسـفورد عمـل فيه

٥٧ باحثًا في عشرين دولة على مدار ٣ سنوات، وتكلف ١,٩ مليون جنيه استرليني، وتم نشر نتائجه في عام ٢٠١١م، ثبت أنّ الأطفال الصغار يولدون ولديهم فطرة الإيمان بوجود الله والحياة بعد الموت».

ثم أضاف إلى ذلك: «فقضية وجود الفطرة في حد ذاتها لا ينكرها الملاحدة، ولا يستطيعون إنكارها، بعد حسمها من علمائهم وكبرائهم أنفسهم، لكنهم يسعون لإيجاد تفسير مادي لها يتفق مع إنكار وجود الله».

ثم ضرب العديد من الأمثلة لمحاولاتهم الفاشلة من أجل الخروج بهذه النتيجة ـ التي لا مراء فيها ـ عن نهجها الصحيح، وتفسير ذلك تفسيرًا ماديًا بجعل الإيمان بالله واليوم الآخر نتيجة لتفاعلات معينة في دماغ الإنسان.

وهذا كله يؤكد أن حجة الله تعالى قائمة على الناس جميعا بما فطرهم عليه من دينه الحق الذي جاء به النبيون عليهم السلام، وليس الانحراف عن ذلك إلا استجابة لهوى النفوس، واستئسارا لمكائد الشيطان وعمى عن الحق والحقيقة، وهو ما دل عليه قوله ﷺ فيما يحكيه عن ربه تعالى: «ألا إنّ ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظانًا».

قال الإمام النووي: «أما قوله تعالى: (لا يغسله الماء) فمعناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على مر الأزمان، وأما قوله تعالى: (تقرؤه نائما ويقظان) فقال العلماء معناه: يكون محفوظا لك في حالتي النوم واليقظة وقيل تقرؤه في يسر وسهولة».

• الله غالب على أمره:

ولم تكن نتائج هذه الدراسات التي قام بها هؤلاء الباحثون إلا تهيئة لظهور الحق وانتصار رسالات الله تعالى على الجاحدين والمعاندين تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣، وكل داعية يدعو إلى الله على بصيرة من أمره وإخلاص لربه هو من جنده الذين كتب الله لهم الغلبة، وقد وعد الله سبحانه بأن يظهر

دينه الحق على كل دين، ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣٣، وجميع محاولات الملحدين وأذنابهم الأذلين للحيلولة دون نجاح ذلك ستبوء بالفشـــل الذريع، والإخفاق الفاضح، فإن هذا هو وعد الله الذي لا تبديـــل لكلماته، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ التوبة: ٣٢.

فليخسأ الملحدون فإن الله غالب على أمره، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ المجادلة: ٢٠ ـ ٢١.

أحمد بن حمد الخليلي

١٣ ذي القعدة ١٤٤٢هـ